الإسلام والغرب .. إشكالية الوحدة والصراع

د.إيـــاد البرغوثي*

مقدمـــة :

يثير موضوع العلاقة بين الإسلام والغرب ، أو بين الإســـلاميين والغـــرب، إن أردنا الدقة أكثر، إشكاليات عديدة، نظراً لتعدد الاتجاهات والمفاهيم لدى كل من الإســـلام والغرب على السواء .

فأي إسلام نعني، وأي إسلاميين؟. هل هو إسلام الأمة أم إسلام الخاصة؟ هل هو الإسلام الشعبي أم الإسلام الرسمي؟، هل هو إسلام الحكومات أم إسلام الحركات السياسية الإسلامية؟، وإذا كان ما نعنيه هو إسلام الحكومات فهل هو إسلام السعودية أم إيـــران أم طالبان ..؟. وإذا كان إسلام الحركات السياسية، فهل هو إسلام الإخوان المسلمين أم حزب التحرير، أم الجماعة الإسلامية والجهاد الإسلامي؟ .

وإذا كان إسلام النخبة المثقفة ، فهل هو إسلام سيد قطب وأبو الأعلى المودودي، أم هو إسلام حسن الهضيبي والقرضاوي ؟

وأي غرب نعني ؟ الغرب الأوروبي أم الغرب الأمريكي؟، غـــرب الشـــعوب أم غرب الحكومات؟، الغرب المسيحي أم الغرب العلماني، الغرب الاشـــتراكي أم الغـــرب الرأسمالي؟ الغرب الليبرالي أم الغرب المحافظ؟، غرب المثقفين أم غرب العامة؟، غرب الكاثوليك أم غرب البروتستانت أم الأرثوذكسي . . .؟.

هناك إقرار لدى بعض المثقفين الإسلاميين بحقيقة وخطورة التعامل مع الغـــرب على أساس أنه وحدة واحدة ومتجانسٌ في موقفه من القضـــايا الإســـلامية ، أو قضـــايا

* أستاذ العلوم السياسية ـ جامعة النجاح

المسلمين. أحد هؤلاء المثقفين كتب: "لا بد من الإقرار بضرورة العمل على كسب ما يمكن كسبه من المؤيدين لقضيتنا في الغرب، وعدم الالتفات لأولئك الذين يعتقدون أن العالم لهم وحدهم، وأن الجبهات الأخرى متحدة تماماً ضدنا، لأن مثل هذه التصورات لم تعد مقبولة ، كما لم تكن مقبولة أصلاً ، فلمراكز القوى مصالح متضاربة ، لا تلتقي دائماً، كما أن وضع الأنظمة والشعوب في سلة واحدة هو تصور خاطئ ، فبالإمكان ، إيجاد أنصار للحق ، حتى من بين أعداد أصحابه" .

إن هذا التعدد أو التنوع في كل من الإسلام والغرب لا يعني أننا لا نستطيع أن نخرج ببعض التعميمات في العلاقة بين الجانبين، ليس فقط لأن ما هو عام بينهما هو مسألة موضوعية، بل أيضاَ للنمطية السائدة في رؤية كل طرف للآخر، تجعل إمكانية أي تطبيع عقلاني بينهما مسألة محفوفة بمخاطر عديدة. ولكن العلاقة بين الطرفين مسألة لا غنى عنها ولا فكاك منها وبخاصة في ظل العولمة التي تسود حالياً، وتقرب المسافات، وتجعل انعزال دولة أو مجموعة دول مسألة من بقايا الماضي .

إن دراسة العلاقة بين الإسلام والغرب، مسألة ليست خاضعة لاعتبارات إيديولوجية فقط، بل نلمس ارتباط الإيديولوجي بالاستراتيجي بشكل كبير، إنهما من الناحية الجغرافية طرفان متجاوران على ضفتي المتوسط، بقدر ما لكل منهما من تحفظات على الآخر، إلا أن بينهما ارتباطات مصلحية أيضاً، وبقدر ما بين بعض أطرافهما من وفاق سياسي واقتصادي ، بينهما أيضاً قضايا ساخنة سياسية وفكرية تبدأ بالديموقراطية وتمر بحقوق الإنسان ، والمرأة . . . الخ .

هذا الموضوع مرتبط إلى حد بعيد بدراسة الأنا والآخر في الثقافة العربية الإسلامية، وفي الواقع العربي والإسلامي، ويكاد يكون الغرب هو الآخر الوحيد، عندما يتحدث عن الآخر العرب والمسلمون. ولا يمكن أن يكون ذلك الآخر أفريقيا أو آسيا أو أي بلد من العالم الثالث. إن ذلك ليس فقط بفعل مركزية الغرب، بل أيضاً لكون الإسلاميين يعتبرون الثقافة الإسلامية نداً للثقافة الغربية والبديل المرشح لها بعد انهيارها المفترض؟ .

١ـ الغرب والإسلام . . . والمسلمون :

أ . مسوغات العلاقة :

عند البحث في العوامل المقررة لمواقف الغرب تجاه الإسلام والمسلمين والإسلاميين – آخذين بعين الاعتبار الفوارق بين مختلف بلدان الغرب واتجاهاته حيال هذه المسألة – نجد أن العوامل الاستراتيجية هي الأساس في تقرير الموقف من الدول والحكومات الإسلامية والحركات الإسلامية ، بينما نجد أن العوامل الثقافية والإيديولوجية تقرر الموقف حيال الإسلام نفسه كإيديولوجية، مع مراعاة التداخل بين مختلف هذه العوامل ولا سيما أن الإيديولوجيا النمطية قد تكون الأرضية التي تبنى عليها المواقف الغربية تجاه الحكومات الإسلامية أيضاً .

إن نظرة إلى طبيعة المواقف الغربية ، وبخاصة الأمريكية منها كونها أكثر وضوحاً من الأوروبية ، نجد أن المصالح الأمريكية تلعب دوراً حاسماً في تقرير الموقف الرسمي من الحكم في بلدان الخليج العربي النفطية الذي يتميز بالتأييد لهذه الأنظمة، وهذه المصالح نفسها تستوجب المواقف الأمريكية المتشددة والسلبية حيال حكومات إيران والسودان وليبيا .

إن الموقف الأمريكي من المجاهدين الأفغان أوضح مثال على الدور الذي تلعبه المصلحة الاستراتيجية للولايات المتحدة في تحديد موقفها من جهة معينة . فالولايات المتحدة دعمت هؤلاء المجاهدين بكل قوتها عندما كانوا جزءاً من استراتيجيتها في محاربة الاتحاد السوفياتي، ثم أصبحوا وكأنهم من ألد أعدائها بعد ذلك، مثل حالة أسامة بن لادن.

وان الموقف الأمريكي في المشكلة الكويتية العراقية وحرب الخليج، أكد على سياسة المعايير المزدوجة التي تتبناها الولايات المتحدة حيث حشدت أمريكا قوتها وقوة

حلفائها خلف مصالحها النفطية في الخليج ولم تهتم بأحداث مشابهة في أماكن أخرى من العالم.

وتلعب إسرائيل أيضاً دوراً رئيسياً في تحديد علاقة الغرب بالإسلام . فهي على علاقة استراتيجية بالغرب وبخاصة بالولايات المتحدة ، وكونها ضمن المجال الإستراتيجي الحيوي للغرب، ولتأثيرها في الغرب نفسه ، حكومات ورأياً عاماً ، فإنها تقوم بدور تعبوي مضاد للإسلام، حيث يلاقي هذا الدور آذاناً صاغية في الغرب لكونه ينسجم مع العوامل الأخرى التي تشكل معاً رافداً قوياً في النظرة الغربية للإسلام والمسلمين ، ولكونها صادرة من إسرائيل التي يحرص الغربيون على عدم تكذيبها لأسباب تاريخية ونفسية .

لقد تحول منصب الرئاسة الفخري سياسياً في إسرائيل ، إلى دور سياسي كبير للرئيس في التحريض على ما سمي بالخطر الإسلامي على العالم . لقد كان الرئيس الإسرائيلي الأسبق حاييم هرتسوغ من أنشط الرؤساء بل والسياسيين الإسرائيليين إثارة للموضوع الإسلامي في كل مكان يزوره ، بما في ذلك زيارته للصين أيضاً . ومع أن الرئيس الإسرائيلي الحالي فايتسمان ليس أنشط من سابقه في هذا المجال إلا أنه يعيره الاهتمام الكبير أيضاً .

ان وجود جاليات يهودية مؤثرة في الغرب تساعد إسرائيل في زيادة تأثيرها على سياسة الغرب تجاه المسلمين . ففي معرض تعليقها على العلاقة بين فرنسا والإسلام كتبت مجلة "فلسطين المسلمة" حول النفوذ اليهودي في فرنسا فقالت إن هناك في حينه ست عشرة وزارة ليهود من حوالي خمسين وزارة بينما عدد اليهود في فرنسا نصف مليون من ستين مليوناً ، هذا بالإضافة إلى حجم نفوذ اليهود في الدوائر السياسية والمالية والإعلامية الفرنسية لدرجة أن ميشال جوبير وزير الخارجية السابق في فرنسا صرح بأنه ليس بإمكان أي فرنسي أن يصل إلى مواقع النفوذ السياسي إذا لم يدعمه اليهود ، سواء أكان اشتراكياً أم يمينياً .

ولم يقتصر تعامل الولايات المتحدة المزدوج الكويت وإسرائيل وبمواقف أساسية من هذه القضية القومية "فلسطينية" بل أيضاً في المواقف الأمريكية تجاه الفئات الحاكمة نفسها . فهي تتغاضى عن قضايا حقوق الإنسان والديموقراطية إذا ما تعلق الأمر بالحكومات الموالية لها في المنطقة، وبخاصة حكومات البلدان النفطية ، لدرجة كتب فيها أحد الدارسين بأن "الخوف على مصالح أمريكا في البلدان الديمقراطية أكثر".

وإذا كان العامل الاستراتيجي هو المقرر الحاسم في موقف الحكومات الغربية من العالم الإسلامي مشهوداً من خلال المواقف اليومية لهذه الحكومات ، فإن ذلك لن يجعل الصورة مكتملة ما لم نأخذ بالحسبان البعد الإيديولوجي التاريخي في العلاقة بين الطرفين. إن بداية الصراع التاريخي كان منذ ما يقارب الألف عام عندما فتح المسلمون سيبيريا ثم جاءَت الحروب الصليبية ، ويرى آخرون أن الصراع أبعد من ذلك بكثير حيث يعود إلى ما قبل الإسلام، حين استولى اليونان والرومان على المنطقة. إن قدم الصراع مهما كان لا يمكن أن يفسر بالضرورة مواقف بعض المنظمات الإسلامية من أن الإسلام والغرب مشتبكان في معركة تاريخية مستمرة تشمل الحروب الصليبية والاستعمار الأوروبي وتستمر إلى العلاقة مع روسيا والصهيونية .

إن الأهم من التاريخ نفسه كأحداث ، هو عملية التطور التاريخي التي مر بها الجانبان وشكلت عندهما أوضاعاً اجتماعية – اقتصادية مختلفة ، وما ترتب على ذلك من مواقف إيديولوجية وقيمية متباينة . هذه الأوضاع الاجتماعية – الاقتصادية تتلخص في أن الغرب يشكل مجتمعاً رأسمالياً متطوراً، بينما تختلط الأوضاع في العالم الإسلامي بين مزيج من نهايات الإقطاع وبدايات الرأسمالية.

لقد أدت الظروف الاجتماعية الاقتصادية المختلفة في كلا العالمين الغربي والإسلامي إلى إيجاد رؤية فكرية مختلفة بين الجانبين، تتمثل بالمواقف من "الديموقراطية والتعددية، وحقوق الإنسان، والموقف من المرأة" .

ورغم أنه من الصعب تجاهل حقيقة، أن الغرب قد قطع أشواطاً كبيرة في المجالات الثلاثة المذكورة قياساً بالدول الإسلامية كافة، إلا أن نظرة الغرب نمطية جامدة

من ناحية، بحيث لا تأخذ بعين الاعتبار التغيرات التي تطرأ داخل المجتمعات الإسلامية، أنها نظرة غير منصفة في التعامل مع الدول الإسلامية، طبقاً للشوط الذي قطعته هذه الدول في العملية الديمقراطية، فالرئيس الإيراني خاتمي على سبيل المثال هو أكثر رئيس مسلم منتخب بطريقة ديمقراطية، إن لم نقل بأنه الرئيس المسلم الوحيد المنتخب من الشعب، ومع ذلك فإن إيران هي الأوفر حظاً في عداء السياسة الرسمية الأمريكية اتجاهها.

وينظر الغرب إلى مواقف المسلمين كافة (بغض النظر عن كونهم متدينين أم غير متدينين، مسيسين أم غير مسيسين)، من المسائل السابقة (الديمقراطية وحقوق الإنسان والمرأة) على أنها مواقف متماثلة دون مراعاة الفروق الواضحة بين مختلف الشرائح والاتجاهات فيها . إن الحركات الإسلامية الأهم في المنطقة ، والمعني بها الإخوان المسلمون ، وحزب التحرير ، والجماعة الإسلامية لا تتفق على موقف موحد من القضايا التي طرحت ، بل إن مواقفها متابينة. كما أن الحكومات الإسلامية لها مواقف متباينة من هذه المسائل فلا يمكن أن تكون مواقف الطالبان في أفغانستان والحكومة الإيرانية والسودانية تجاه كل من هذه القضايا واحدة .

إننا نلاحظ الفروق حيال هذه القضايا من تنظيم إسلامي لآخر أو من حكومة إسلامية لأخرى، بل نكاد نرى مدارس مختلفة داخل التنظيم الواحد أو التيار الواحد أو الحكومة الواحدة . كما أننا نلحظ الفرق في الرؤية داخل التنظيم الواحد معتمداً ذلك على الفوارق في الجيل والخلفية الاجتماعية ومستوى التعليم ونوعه . . . لقد أوضحت الأدبيات الغربية هذه المسألة عندما كتبت أنه "رغم كثرة الأشكال والألوان للنشاطية الإسلامية فإنها ما زالت تعامل –بصورة خاطئة– على أنها قوة منفردة أو كتلة واحدة".

وبالطبع لا يمكن وصف العالم الإسلامي بأنه ديمقراطي ، وكذلك لا يمكن وصف الحركات الإسلامية بأنها حركات ديمقراطية. ولكن الأسئلة المشروعة التي يجب أن تطرح: هل العالم الإسلامي هو الوحيد الذي ليس ديمقراطياً؟، وهل الحركات الإسلامية هي الحركات السياسية الوحيدة غير الديمقراطية؟. إن الدارس للحركات الإسلامية يدرك

تماماً أن كثيراً منها لا تقل "ديمقراطية" عن كثير من الحركات العلمانية. بل إن كثيراً من الأحزاب السياسية في المنطقة والتي يشتمل اسمها على كلمة "ديمقراطي" لا تختلف في آليات اتخاذها للقرار عن أكثر الحركات الإسلامية مركزية.

ب . واقع العلاقة :

رغم أن أنظمة الحكم في البلدان الإسلامية، إذا ما استثنينا بعضها، هي من أشد حلفاء الولايات المتحدة والغرب في المنطقة ، إلا أن الفرد المسلم يشعر بتمييز كبير لغير صالح الدول الإسلامية بحكم توجه الغرب تجاه قضايا المنطقة وتجاه المسلمين . كما يشعر كثيرون أيضاً ، ومنهم سياسيون كبار بعدم اهتمام الغرب بقضايا المسلمين اهتماماً إيجابياً كما كان ذلك في البوسنة وكوسوفو والشيشان . وصرح الأخضر الإبراهيمي مبعوث الأمين العام للأمم المتحدة إلى أفغانستان بأن الغرب "لا يهتم عندما تكون الحروب بين المسلمين " .

ويستغرب المسلمون، أنه باستثناء كوبا، فإن كل الدول التي تعتبرها الولايات المتحدة راعية للإرهاب هي دول إسلامية . ويتساءلون عن سبب عدم قبول تركيا في السوق الأوروبية رغم أنها عضو نشط في حلف شمال الأطلسي، وقدمت للغرب ما لم يقدمه أحد أبناء الحرب الباردة مع العلم أن حكومتها تتبنى العلمانية بصورة مبالغ فيها حتى قياساً بالغرب . ويلاحق الغرب بعض المنظمات الإسلامية ، بل ويدعم بعض حكومات الدول الإسلامية في مواجهة تلك المنظمات، وتكون الملاحقة أشد عندما تكون هذه المنظمات مقاومة لإسرائيل . فالولايات المتحدة تعلن "حماس منظمة إرهابية" رغم محاولات الأخيرة ليس فقط عدم المس بمصالح أمريكا في المنطقة، بل وحرصها على التقرب إلى الولايات المتحدة . لقد اعتقلت الولايات المتحدة موسى أبو مرزوق رئيس المكتب السياسي لحماس، رغم أنه يتمتع بحق الإقامة القانونية فيها، ثم أطلقت سراحه لاعتبارات سياسية ، بينما لم تفعل ذلك حيال قادة آخرين بتنظيمات موالية لها .

ومن بين الإجراءات الغربية ضد المسلمين ما تقوم به بعض الحكومات في الدول الغربية من ممارسات ضد الجاليات الإسلامية في بلدانها . فهناك إشكاليات في فرنسا

وبعض البلدان الأوروبية الأخرى مع الجاليات الإسلامية فيها، وفي حال وقوع أي حادث إرهابي تتوجه الأنظار إلى المسلمين كما حدث في انفجار أوكلاهوما حيث تبين أن الفاعل أمريكي أبيض ، وكما حدث في حادث طائرة TWA التي انفجرت بعد إقلاعها من مطار كنيدي في نيويورك، ثم تبين أن ذلك بسبب خلل فني . وقال مستشرق غربي أنه "ليست هناك علاقة لازمة أو تاريخية بين الإرهابية السياسية والهويات الإسلامية".

٢ـ الإسلاميون والغرب :

رغم أن الطرف الإسلامي هو طرف متعدد أيضاً كما هو الطرف الغربي ، إلا أنه يفترض عدم إغفال العالم الإسلامي في وجود الخصوصية عند كل جانب إسلامي فيما يتعلق بالعلاقة مع الغرب .

وكما هم المسلمون ضحية تعميم حول الإسلام ، فإن بعض الغربيين أيضاً ضحية تعميم إسلامي حول الغرب . وبالطبع هناك فروق في درجة التضحية هنا حيث يستطيع الغرب، بحكم قوته، أن يترجم وجهة نظره إلى أفعال، بينما لا يستطيع المسلمون تحويل وجهة نظرهم إلى فعل، إلا على شكل فردي غير مؤثر ، وباعتقادي أن هذا هو السبب الرئيس وراء الإرهاب الفردي الموجود في بعض بلدان الشرق ، لأنه ليس هناك إمكانية لأن تقوم الدولة بهذا الدور على المستوى الخارجي. أن موقف الإسلام من الغرب موقف دفاعي في معظم الأحيان، والغرب بحكم مركزيته الآن يفرض الأجندة التي تطرح على الآخرين وما عليه غير القبول بها أو رفضها.

إن أحد أهم مظاهر قوة الغرب تكمن في التقدم التقني والإعلامي، فوسائل الإعلام الغربية الهامة هي التي تقرر ماذا نسمع، وكيف نسمع، والذي يصلنا من الغرب هو الخطاب العلمان العصري وليس الخطاب المسيحي، لدرجة أن أحد الدارسين يرى أنه "إذا كان الغرب قد ارتبط بالمسيحية في القرون الوسطى فإنه اليوم ليس كذلك " .

وإذا كان ما يصلنا من خطاب الغرب هو العصري والعلماني فإن الذي يصل الغرب من الخطاب الإسلامي ليس إلا الخطاب "الأصولي"، والإعلام الغربي إنتقائي إلى

حد بعيد، فالتقدم التكنولوجي في الغرب جعله يوصل ما يريد من ثقافته للمسلمين ، ويوصل ما يريد من ثقافة المسلمين لمواطنيه .

إن مصادر الحكم على الغرب إسلامياً تتمثل أساساً في القرآن والسنة النبوية وما وجد فيهما حول الآخر وبخاصة حول الآخر المسيحي . والتاريخ الحافل بالنزاع بين المسلمين والفرنجة هو امتداد من النزاع حتى احتلال الدول العربية والإسلامية من قبل الاستعمار الأوروبي وما يجري حالياً من محاولات الغرب لترسيخ أقدامه السياسية والاقتصادية والثقافية في المنطقة .

وهناك أربعة أبعاد تشكل القاعدة الأساسية لوجهة نظر المسلمين في الغرب ، ثلاثة منها سلبية والرابعة إيجابية ، وهي التقدم التكنولوجي الموجود في الغرب والذي لا يمانع الإسلاميون (مع بعض الاستثناءات) في الأخذ بأسبابها ومعرفتها والاستفادة منها، ويحاول بعض رجال الدين أن يفسر التقدم التكنولوجي والمعرفي على أنه موجود في القرآن وأن تخلف المسلمين نابع من عدم فهمهم "الصحيح" لكتاب الله بينما قام الآخرون بمعرفته ؟.

أما من حيث الأبعاد السلبية فهناك رؤية نمطية للمسلمين حول الغرب تتلخص في أن الإيديولوجيا المتبعة في الغرب هي إما المسيحية أو العلمانية . وما دام المسلمون يؤمنون بالمسيح كنبي لإحدى الديانات السماوية ، فإنهم غالباً ما يلجأون إلى وصف الغرب بالعلماني وليس بالمسيحي حتى تبرر وجهة النظر السلبية التي يحملها المسلمون تجاهه . أما في الحالة التي يضطر الإسلاميون فيها للحديث عن أحد في الغرب لا يمكن أن يوصف بالعلمانية كما هو البابا مثلاً ، فإنهم يتحدثون عن تحريف في المسيحية مما أبعدها أن تكون ديناً إلهياً نقياً .

ويتبع المنظور الإيديولوجي في النظرة الإسلامية للغرب المنظور السياسي المتمثل في أن الغرب استعماري بدءاً من الحروب الصليبية وإسقاط الخلافة الإسلامية في الدولة العثمانية ، مروراً باستعمار الدول العربية والإسلامية منذ بداية القرن وحتى خمسينياته ، وانتهاء بدعم الحركة الصهيونية وإنشاء دولة إسرائيل على الأرض

الفلسطينية . والغرب حليف لحكومات الدول الإسلامية التي هي بدورها معادية للحركات الإسلامية التي تحاول تطبيق الشرع الإسلامي .

كما أن هناك بعداً اقتصادياً اجتماعياً يحكم نظرة الإسلاميين إلى الغرب على رغم الكتاب المسلمين الذين يشيرون إلى هذا البعد . إذ يصف أحد الكتاب الإسلاميين النظام الدولي الجديد فيقول إنه "ما هو في النتيجة سوى انتقال أنظمة العبودية والقنانة من مستوياتها المحلية إلى مستويات عالمية، ومن أطر فردية إلى أطر جماعية، أي أن تستعبد أمة أمما أخرى . . . فالنظام الدولي ليس هو التوسع التدريجي للحالة المحلية ، أي أنه ليس نتيجة لتمدد الغرب ، بل أن النظام الدولي هو الشرط الأول لقيام الغرب بمعناه الاستكباري فهو القاعدة اللازمة والضرورية لتوفير القدرة والقوة والرفاه الذي يتمتع به الغرب (أو الشمال) على حساب فقر وضعف واستكانة الشرق (أو الجنوب)".

ويعتبر هذا الكاتب أن النظام العالمي الجديد قسم العالم إلى قسمين ، عبيد وأصحاب عبيد ، فهو "نظام عدواني بالتعريف الأول ، ولا يكتفي بالتهام حقوق ومكاسب وأرض الآخرين ، بل يلتهم أيضاً وبسرعة هائلة مقومات الحياة والتكاثر كما وضعها الله سبحانه وتعالى في الإنسان والأشجار والمياه والهواء والأرض وما في باطنها" .

أما المنظور الأخلاقي الثقافي فهو مرتبط بالمنظور الديني الإيديولوجي، الذي يرى أن الغرب إباحياً فاسقاً فاسداً ومفسداً مرتكباً للمعاصي "وشيطاناً أكبر" عندما يتعلق الأمر بالفرد وبالأسرة وبالمجتمع في الغرب، ويعمل الإسلاميون جهدهم من أجل البقاء خارج دائرة التأثر الغربي في هذه المجالات .

٣ـ الحركات الإسلامية والغرب :

تتميز العلاقة بين الحركات الإسلامية والغرب بعدم الثبات، وتغيرت هذه العلاقة من زمان لآخر، ومن مكان لآخر، ومن حركة إسلامية لأخرى، ومن غرب لآخر . ففي مرحلة الاستعمار الأوروبي المباشر للمنطقة الإسلامية ساهمت الحركات الإسلامية المختلفة أو الحركات ذات الطابع الإسلامي في الحركة من أجل الاستقلال. وتمثل

ذلك -بنسب متفاوتة- في الحركة المهدية في السودان، والسنوسية في ليبيا، والإخوان المسلمين في مصر، وثورة عز الدين القسام وحركة الحاج أمين الحسيني في فلسطين...

على أن ما يثير الجدل في مواقف الحركة الإسلامية تجاه الغرب، هو المواقف التي اتخذتها أثناء الحرب الباردة كحليف للغرب في مواجهة الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية الأخرى أو كبديلة للتيار القومي الذي ساد في المنطقة في سنوات الخمسينات والستينات وبعض السبعينات .

لقد كانت حركات الجهاد الإسلامي في أفغانستان ، من أكثر حلفاء الغرب في المنطقة، حيث تلقت هذه الحركات المساعدات الكبيرة من الغرب والولايات المتحدة بالتحديد، بالإضافة إلى مساعدات الحكومات الإسلامية المحافظة . وبعد أن أنجزت مهمة الصراع مع الاتحاد السوفياتي وجد الغرب نفسه في وضع صراع مع كثير من المنظمات الإسلامية في أفغانستان .

وإذا كانت حركات الجهاد الإسلامي في أفغانستان قد خضعت للاعتبارات الاستراتيجية كونها واقعة إلى جانب قوى متعددة ومتصارعة: كإيران وباكستان والهند والصين بالإضافة إلى الولايات المتحدة، فقد وجدت في السنوات الماضية حركات سياسية إسلامية لا تعادي الغرب، كما هي حركة حماس على سبيل المثال – حيث اعتبرت معركتها الأساسية مع "الاحتلال الصهيوني" وليس مع الغرب وحاولت فتح خطوط مع ممثلي الحكومات الغربية ونجحت في بعض هذه المحاولات .

إن المتتبع لمواقف حماس من الغرب يجد فيها الكثير من المسؤولية، سواء في محاولة فتح الخطوط معه أو عدم المبالغة الإعلامية التي تجلب السلبيات أكثر من الإيجابيات . لكن محاولات تقرب حماس من الغرب لم تمنعها من تحميل المسؤولية للغرب في قيام دولة إسرائيل، ورغم ذلك فإنها تعتبر نفسها في معركة مع إسرائيل وليس مع الغرب كما قال رئيس مكتبها السياسي خالد مشعل .

إن خطاب حماس الموجه إلى الغرب يتميز بالمسؤولية في معظم الحالات، وعلى الرغم من أن معظم الحركات الإسلامية تنتقد المواقف السياسية لكثير من دول الغرب

وبخاصة في القضايا التي تهم المسلمين أو في البعد الاستراتيجي لعلاقة الغرب مع الحكومات الغربية والإسلامية ، إلا أن بعض هذه الحركات وحد نفسه يحاول الإجابة على طروحات الغرب وبخاصة فيما يتعلق بالديمقراطية وحقوق الإنسان . ويعتقد راشد الغنوشي زعيم حركة النهضة التونسية أن "لا مصالح حقيقية للغرب في معادة الإسلام"، ولكن "ما نعيبه نحن المسلمين على الغرب أنه لم يعترف بعد بالإسلام رسمياً، وأنه لا يزال مؤمناً بالمركزية الحضارية الغربية، وأنه غير قادر وربما ليس مستعداً لقبول التعدد الحضاري والدين والتعايش..".

٤ـ الحكومات الإسلامية والغرب :

مثلما هي التنظيمات الإسلامية فإن الحكومات الإسلامية خاضعة لعدم الانسجام في علاقتها بالغرب ، حتى الحكومات التي تدعي أنها تتبنى الشريعة الإسلامية .

إن درجات معاداة الغرب أو مهادنته من جانب الحكومات الإسلامية درجات مختلفة، فعلى سبيل المثال نجد أن المملكة السعودية ترتبط بالغرب وبالولايات المتحدة بعلاقات من نوع خاص، في حين أن إيران الثورة تمثل طوال السنوات السابقة عدواً شرساً للولايات المتحدة. لقد اعتبرت إيران أمريكا بمثابة الشيطان الأكبر .

ومع أن إيران والسودان هما الدولتان الإسلاميتان النموذجان لكل من الشيعة والسنة في وقتنا الحاضر إلا أن السودان تمثل نموذجاً آخر غير إيران –وكذلك غير السعودية– في علاقتها مع الغرب. إن تجربة السودان –وكذلك تجربة إيران مؤخراً– تثبت أن الحكومات الإسلامية لا بد وأن تتحلى بقدر من البراغماتية تسمح ، كما في حالة السودان ، بتسليم كارلوس إلى فرنسا ، وتبادل تجاري مع الغرب ، رغم اتهامات كل من مصر والغرب للسودان بإيواء الإرهابيين.

ومن الصعب معرفة ما إذا كانت الحكومة التي تتبنى تطبيق الشريعة الإسلامية تقوم بذلك اقتناعاً منها بكونها إيديولوجيا شمولية تستهدف تغييراً جذرياً في طبيعة حياة المجتمع وعلاقاته ، أم هي مجرد وسيلة لاكتساب شرعية تقبل بها فئات عريضة من الشعب . كما أن معظم حالات تبني الشريعة في الوقت الحالي لم تتجاوز الإعلان عن

النية في تطبيقها ، أو إضافة بعضا الكلمات الدينية إلى العلم ورفع بعض الشعارات . ومن هنا نجد أن حكومات ذات توجه إسلامي (السعودية وباكستان) من بين أخلص حلفاء الولايات المتحدة، ومن بين أشد أعدائها حكومات ذات تواجد إسلامي مثل ليبيا وإيران.

ولم يحدث في تاريخ العلاقة بين المسلمين والغرب أن حدث اصطفاف في المنطقة على أساس فكري إسلامي مقابل سياسة معينة تجاه الغرب . بل إن الغرب دخل إلى المنطقة وبقي فيها أو تعامل معها بالتحالف مع حكومات ذات طابع إسلامي من وجهة نظر البعض مقابل حكومات غالباً ما كانت تتبنى ذات الطابع . بمعنى أن المسلمين كحكومات ودول لم يكونوا في وحدة واحدة أمام الغرب في التاريخ الحديث .

لقد تشكلت الأحلاف الموالية للغرب في المنطقة بمساهمة نشطة من حكومات دول إسلامية، هكذا كان حلف بغداد، وهكذا كان حلف السنتو أيضاً ، وهكذا تمت السيطرة الإنجليزية المصرية على السودان ... وأخيراً وليس آخراً هكذا قامت حرب الخليج الأخيرة بمباركة من حركات وحكومات إسلامية ، واستنكار من حركات وحكومات إسلامية أخرى ، وحياد من حركات وحكومات إسلامية ثالثة .

٥ـ قضايا فكرية في العلاقة بين الإسلام والغرب :

إذا كانت قضايا كالديمقراطية وحقوق الإنسان والموقف من المرأة تمثل مسائل عملية تجعل من موقف الغرب تجاه الدول الإسلامية موقفاً متشككاً حيال هذه القضايا ، فهناك مسائل نظرية تدخل ضمن وجهة النظر الإسلامية .

وتتمثل أول هذه القضايا بشمولية الإسلام، حيث يعتبر الإسلاميون أن دينهم يشمل مجالات الحياة كافة ويمتد عبر الزمان والمكان. ولهذه القراءة بعدان، أحدهما إيجابي والآخر سلبي. الإيجابي يتمثل في رفض التبعية التي يعلن عنها الإسلاميون دائماً سواء للشرق أو للغرب، بمعنى أن الشمولية هنا تحول دون الإرتماء في أحضان الاستعمار، كما أن الشمولية ، تجعل الدين الإسلامي بعيداً عن العنصرية بمعنى أنه رسالة للأجناس والألوان كافة . أما السلبي فإنه يفيد معنى "الأستاذية" أو شكل من أشكال "الوصاية" على الآخرين . وإذا كانت الأستاذية الإسلامية رداً على أستاذية الغرب فالأخيرة تملك مبررات

وجودها الموضوعية نظراً لهيمنة الغرب، بينما أستاذية الإسلام أبعد ما تكون عن الواقع في عصرنا . كما أن الأستاذية هنا تأتي بمعنى الإنقاذية ، أي أن على الإسلاميين رسالة يجب أن يؤدوها تجاه الآخرين من أجل إنقاذهم من الباطل.

ويعتبر أحد الكتاب الإسلاميين أن مهمة الإسلام "إنقاذية لأن الأمة الإسلامية أمينة على رسالة الله في العالم وتريد نشر الحق والعدل والحرية والاستقلال". ويؤكد ذلك حسن الترابي حين يقول: "لو لم يبادرونا هم (الغرب) بهذا الاستفزاز العدواني الذي يؤدي بالضرورة إلى تحريك الحوار، لوجب علينا في الأصل، نحن أهل الرسالة، حمل لواء تبليغها، وأن نكون شهداء بها على العالمين، نبادرهم نحن بالخطاب حتى لو لم يبادرونا هم، ليس حذراً من أن ندفع عن أنفسنا غثيان الباطل، ولكن حرصاً على ألا نفوت على البشر كافة بلوغ الرسالة، ونسأل بعد ذلك عن كتمانها.

لقد تولد عن هذه الأستاذية التي يؤمن كثير من الإسلاميين بها "نشر رسالة الإسلام" وعندما سئل حسن الترابي عن العدالة التي ينادي به الإسلام ودعا إلى ضرورة إيجاد علاقة تفاهم بين الإسلاميين والغرب ذكر "أن ما يبدو اليوم من مظاهر نزاع بين الإسلام والغرب ليس مرده إلى عداء يكنه الإسلام للمسيحيين. فالمسيحية إن جازت العبارة متضمنة في الإسلام". كما كان الشيخ يوسف القرضاوي قريباً من هذا عند إجابته عن سؤال حول إمكانية وجود ثقافة عالمية تستوعب الثقافات الشرقية والغربية تحيي الضمير الفردي وتحافظ على مصالح المجتمع فقال "هذا وصف للثقافة الإسلامية".

وضمن هذا التوجه، يتصف الخطاب الإسلامي عادة بكونه ينظر إلى الحضارة الغربية وكأنها قاب قوسين أو أدنى من السقوط وأن الإسلام هو البديل. يقول الترابي: "تظل الحقيقة أن لدينا مزيداً من الإمكانات المتجددة بالإيمان تلوح وتتوارد أكثر من أي وقت مضى توسع للإسلام قاعدة انتشاره، وتعرف الآخر برسالته وترغمه على التفاعل معها، ذلك أن هذه الإمكانات الإيمانية المتجددة أوجدتها أسباب متصلة بروح العقيدة نفسها، ورعتها عناية الخالق، وبالمقدار نفسه فرضتها على الغرب حالته المتهافتة اجتماعياً وأخلاقياً وبيئياً". بالتأكيد، من الصعب أن يؤمن أحد أن الحضارة الغربية هي

حضارة ثابتة مدى الدهر، ولكن الاستنتاج بأن هذه الحضارة، بسبب بعض الأمراض الاجتماعية ، هي في طريقها إلى الزوال مسألة ليست واردة في المستقبل المنظور.

هناك من يحمل طريقة فهم بعض الإسلاميين لجوهر الإسلام جنباً إلى جنب مع أولئك الغربيين الذين لا يفهمونه على حقيقته، نتيجة إعطاء صورة سلبية "مخيفة" عن الإسلام، وهذا يعني تحالف المعادين للعالم الإسلامي مع مفكرين إسلاميين في فهم الإسلام فهماً ميتافيزيقيا جامداً ولإنكار مقدرة المسلمين على التكيف بالإسلام في الظروف والأزمنة المختلفة. ويكتب فريد هاليداي في هذا المجال" لقد كان خصوم الحركة الإسلامية وأنصارها متفقين على أن "الإسلام" نفسه نظام شامل، لا يتغير، وأن معتقداته تعمل منذ قرون في مجتمعات من كل صنف ، وتحدد مواقف شعوب متنوعة من السياسة والجنس والمجتمع. وكأن الطرفين يشتركان في الرأي القائل بوجود "إسلام" جوهري، محدد تاريخياً، يفترض أنه وراء كل ما يقوله المسلمون ويفعلونه وما ينبغي أن يقولوه وما ينبغي أن يفعلوه. فالخميني والترابي والإخوان المسلمون وكل الباقين لا يقلون إصراراً على هذا الصعيد عن أي غربي متعصب معاد للإسلام. وكائناً ما كانت صوره "الإسلام" الأزلي فإنها ليست فقط بدعة عقول غربية محمومة".

وربما نستطيع مناقشة فريد هاليداري، بأن الجمع بين التيارات المختلفة في فهم واحد وموحد للإسلام ودوره، نظرة قد تكون جامدة للإسلام ولمدارسه المختلفة وللتفريق بين الفكر الإسلامي ودوره وجوهر الدين ، إلا أن الفهم الإبداعي المتطور لحقيقة الفكر الإسلامي والوعاء الاجتماعي المحيط، مسألة ضرورية لإيجاد لغة حوار أكثر اقتراباً ليس فقط مع الغرب وإنما أيضاً أكثر اقتراباً إلى الذات .

خاتمة :

على الرغم من أن للغرب ، وبصورة عامة ، وجهة نظر نمطية حول الإسلام والمسلمين، إلا أن السياسة الغربية تجاه الإسلام ليست ثابتة في يوم من الأيام. فلقد أثبتت سياسات معظم البلدان الغربية المتنفذة أنها كانت لفترات طويلة تحارب الإسلام المقاوم، القومي والوطني ، وتنحاز إلى الإسلام التابع المفرغ من محتواه القومي.

فيوم كانت القومية في الستينات حالمة لمشروع الاستقلال العربي كانت القومية، وليس الإسلام، العدو الذي يحظى بالأولوية في السياسة الغربية تجاه المنطقة العربية. وفي أيامنا هذه، فإن الغرب ما زال حليفاً لكثير من الأنظمة أو أن تلك الأنظمة ما زالت حليفة للغرب في البلدان التي توجد فيها المصالح الأساسية له. لقد كان "الغرب" طيلة تاريخه الحديث عدواً للمشروع النهضوي العربي، أياً كانت القوى الاجتماعية والإيديولوجية الحاملة لهذا المشروع.

ولا يهم الغرب كثيراً تفاصيل الفقه الإسلامي بل همه أكثر الاتجاهات السياسية الجذرية المقاومة في الإسلام. لقد كان إنشاء حماس، على سبيل المثال، دافعاً للغرب لدراسة الإسلام وحركاته السياسة، وربما أكثر مما درسه الغرب عن الإسلام والمسلمين حتى تاريخ إنشاء الحركة. فلم يكن الأهم في يوم من الأيام الأفكار العامة لأي دين أو إيديولوجيا إنما الأهم هو الحامل الاجتماعي لهذه الأفكار والطريقة التي يفهم بها هذا الحامل الاجتماعي هذه الأفكار والهدف الذي يستخدمها من أجله.

المراجع:

١. ياسر الزعاترة ، "الإسلاميون الفلسطينيون والخطاب الموجه للغرب" ، فلسطين المسلمة ، عدد٢، ١١شباط سنة ١٩٩٣.

٢. فلسطين المسلمة ، عدد١٢ ، ١٢كانون الأول سنة ١٩٩٤.

٣. جون أسبوزيتو ، "الحركات الإسلامية وتحقيق الديمقراطية وسياسة الولايات المتحدة الخارجية"، امتطاء النمر: تحدي الشرق الأوسط بعد الحرب الباردة، تحرير فيبي مار و وليم لويس، مركز الإمارات للدراسات والبحوث والنشر، ١٩٩٦.

٤. فريد هاليداي ، الإسلام والغرب: خرافة المواجهة، دار الساقي، لندن، ١٩٩٥.

٥. ناجي علوش : "الإسلام والغرب" ، دراسات عربية ، عدد ٣-٤ ، كانون الثاني – شباط ١٩٩٨.

٦. روبن رايت ، "الإسلاميون بين الديمقراطية والغرب" ، قضايا شرق أوسطية ، عدد ٥-٦، آب ١٩٩٨ ، عمان.

٧. القدس ، ١٩٩٨/١٠/٢٠ .

٨. عادل مهدي ، "النظام العالمي الجديد وأثره على الوضع العربي الإسلامي"، قراءات سياسية ، السنة الأولى، عدد ٢و٣ ، ربيع وصيف ١٩٩١.

٩. للمزيد حول علاقة حماس بالغرب أنظر: جواد الحمد وإياد البرغوثي (محررين)، دراسة في الفكر السياسي لحركة المقاومة الإسلامية حماس، مركز دراسات الشرق الأوسط، عمان، ١٩٩٧.

١٠. الوعي ، عدد ٥٤ ، تشرين الأول ١٩٩١.

١١. حوار مع راشد الغنوشي، فلسطين المسلمة، عدد ٥،١١ أيار سنة ١٩٩٣.

١٢. أحمد الموصللي، الأصولية الإسلامية والنظام العالمي، مركز الدراسات الاستراتيجية، بيروت، ١٩٩٢.

١٣. حسن الترابي، "أطروحات الحركة الإسلامية في مجال الحوارات مع الغرب"، صدام الحضارات، مركز الدراسات الاستراتيجية، بيروت ١٩٩٥.
١٤. حسن الترابي، حوارات الإسلام، الديمقراطية، الدولة، الغرب. دار الجديد، بيروت.
١٥. حسن علي ريا، الإسلام والغرب (حوار مع يوسف القرضاوي)، دار البشير للثقافة والعلوم، طنطا.